

بلوغ الأمل في فن الزجل
ابن حجة الحموي

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حسبي

الفن الأول والثاني

الزجل والمواليا

الحمد لله الذي علا زجل الملائكة في عالم الملكوت بحمده، ونظمنا في سلك العبودية فوقف كل منا متأدباً عند حده، أحده حمداً يقوم وزنه بالقسط ولا يخسر الميزان، وأشكره شكراً تقوم لنا بركته بمعرفة قواعد الإيمان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نترقى بها إلى أعلى الرتب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المنعوت بحسن الأدب، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة نترجح بها يوم الحسرة والندامة، وتعمنا بركتها بين يدي الحكم العدل يوم القيامة، وسلم تسليماً كثيراً. وبعد فإن الأدب جنس يصدق على أنواع عجيبة وفنون غريبة، شهرتها تغني عن أن يجلى في هذا الأفق الزاهر بدرها، أو ينفث في عقد الأقلام سحرها، ولكن نعمل هنا بقول القائل:

إذا كان مدح فالنسيب المقدم

ونسيب الشعر هو المقدم بفصاحته، والموشح ببلاغته. ولما كان لا ينظم إلا باللفظ الصحيح المعرب، لم يصل إليه إلا من تعاطى الآلة في العلوم وتآدب ولعمري هذا مضممار لم يحز قصبات السبق فيه غير الفحول، ولم يدرك شأوه إلا كل ضامر مهزول، ولكن في الناس من في طبعه ذوق الأدب والنكت الأدبية، ولم يعد نفسه من فرسان العربية، منهم الشيخ برهان الدين المعمار رحمه الله تعالى، فإنه نشأ بالديار المصرية ونكت فاستحلوا على زايد النيل زايدة، ونقل عن الشيخ جمال الدين بن نباتة أنه قال: قطعنا المعمار بمقاطيعه. وناهيك بهذه الصلة التي هي على مثله عايدة، واغتفر له أهل عصره اللحن وعدوه له من مطرب التلحين، فإنه أتى في نظمه بنكت تحرك العيدان وتغني عن القوانين، ولهذا عدل قبلة المغرب وهو الامام أبو بكر بن قزمان تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه، واخترع فناً سماه الزجل لم يسبق إليه، وجعل إعرابه لحنه، فامتدت إليه الأيدي، وعقدت الخناصر عليه. ولما نظم بلفظ العوام تمكن منه أديب الطبع، وكان قد حبس عنانه عن العرييات ورأى بيوته واسعة الفنا،

فأسكن مخدرات نكته بتلك الأبيات، غير أن مصنفه ومن تابعه من أهل عصره من علماء هذا الفن امرؤا فيه باجتناب أشياء منها الألفاظ المشرقية، فإن المصنف أو غيره من المغاربة قال:

الله در الزجل ويا ما لقي ما يوافق عمرو لسان مشرقى

وكما أن اللفظ المشرقى لا يجوز في الزجل، فاللفظ المغربي لا يجوز في المواليا لكون أنهما من مخترعات المشاركة مثاله: إذا قلت في الزجل طلعتك، ووجنتك، وقامتك بسكون التاء لم تجز هذه الألفاظ عند الزجاج بل يعدونها خطأ في الوزن، فإن سكون هذه التاء لا تجوز عندهم، وعكس ذلك لا يجوز عند الموالية لأن تحريك هذه التاء لا يجوز عندهم البتة، وأقل من في الزجاج والموالية لا يجهل هذين العيين، وكذلك تاء المتكلم مثل قلت وهمت لا يجوز في الزجل وهي ركن من أركان المواليا لأن المشاركة يتلفظون بها على صيغتها كقول الشيخ صفى الدين الحلبي في بعض أجزاله:

ما اجتمعنا تا أقول كنا وازعق فينا غراب البين

أو أقول عين ضد صابتنا بعد ما كنت قرير العين

فقوله كنت عيب فاحش عند الزجاج، ولا يجوز استعماله عندهم.

وهو أكبر عيوب الزجل بل محو رسمه وإخراجه عن قاعدة المصنف الإعراب، لأنه قال في خطبة ديوانه:

وقد جردته من الاعراب كما تجرد السيف من القراب

وموجب ذلك أن ابن غزلة الشاعر المغربي وهو من أكبر أشياخهم كان ينظم الموشح والزجل فيلحن في الموشح ويعرب في الزجل قصداً واستهتاراً ويقول: القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك، وكان ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك، ولهذا لم يثبت شيئاً من موشحاته في دار الطراز لكون أنهما مزمنة، لأن التزنييم هو ما أعرب من ألفاظ الفنون الأربع، الزجل والمواليا، والكان وكان، والقوما. وسيأتي الكلام على بقية الفنون بعد الزجل إن شاء الله تعالى.

واشتقاق المزم، وهو المستلحق في قوم ليس منهم، وأما قوله تعالى: "عتل بعد ذلك زنييم" أي لئيم، وكأنهم ألحقوا الزجل بالموشح من طريق إعراب بعضه وألحقوا بالموشح الزجل لما أظهروا اللحن في بعض ألفاظه، فمن الموشحات المزممة التي نظمها ابن غزلة المغربي المشار إليه الموشحة التي قتل بسببها لأنه شبب فيها بذكر أخت عبد المؤمن الأموي، ولم يكتف غرامه وهيمانه بها، بل صرح بالاجتماع بها، والواقعة مشهورة، وكانت هي أيضاً جميلة الخلق فصيحة اللسان تنظم الأرجال الرائعة الفايقة ومطلع الموشح قوله:

من يصيد صيدا فليكن كما صيدي صيدي الغزالة من مراتع الأسد

كيف لا أصول
 ظبية تجول
 صاغها الجليل
 تنتهي رويدا إذ تميز في البردي
 رب ذات ليله
 والرقيب في غفله
 رمت منها قبله
 قرقر واهدا لا تكون متعدي
 واقتنصت وحشيه
 في ردا وسوسيه
 فهي شبه حوريه
 تعجن الغلاله والردى مع النهدي
 زرتها وقد نامت
 والنجوم قد مالت
 عند ضمها قالت
 تكسر النباله وتفطر العقدي

فهذا البيت أكثر ألفاظه زجلية ملحونة، وجل قصده في ذلك عذوبة الألفاظ ورشاقته.
 وقيل: إنه لما أخرج الملك للقتل نظر إلى الناس وارتجل بيتاً في الوزن والقافية يستنجد به عشيرته لأخذ
 ثأره. وهو:

خدها الأسيل
 طرفها الكحيل
 ها أنا القتيل
 قد أسرت عبدا ولم أك بالعدي
 بدت منه أنوار
 سل منه بتار
 فهل يؤخذ الثار
 مت لا محالة فاطلبوا دمي بعدي

ومن نظمها فيه الرجل المشهور الذي مطلعته:

مشى السهر حيران حتى
 رأى إنسان عيني وقف

ومن الأزجال التي زعم فيها ابن قزمان، وأعرب في بعض ألفاظها وهو الناهي عن ذلك قوله في بيت من
 زجل مطلعته:

شرب الخمر المحتسب وزنا
 سيدي ليش جعلت ذا محتسب
 ومحكم في أمر أهل الأدب
 وهو زاني زنيم كثير الزنا
 قاضي المسلمين أت هو السبب

الإمام لم يكفه فتح الباء وتحريكها من الاسم المنقوص الذي هو القاضي حتى فتح أيضاً نون المسلمين.
 وفتح نون الجمع من أكبر علائم الإعراب، وبدون فتحها يخطئ الوزن ولفظه. وهو أيضاً مقبول في

الرجل.

وله فتح الياء في غير المنقوص أيضاً وهو من علائم الإعراب، وذلك في مثل ياء المتكلم، والياء في لفظه هي وغيرها كقوله في زجل مطلعته هذا:

أو تجدد علي ما قد نسيت

قلي يا عيد فيما يسرني جيت

فيقول في خرجة بيت منه:

وعليه الثنا يكون ما بقيت

إذا انقطع زماني الأطول

فقد فتح ياء المتكلم في زماني الأطول ولولا ذلك لفسد الوزن.

وقال في تحريك هي:

الجنة لو عطيت هي الراح وعشق الملاح

فإذا أسكن في لفظة هي فسد الوزن.

وأزجال ابن قزمان، ومدغليس، وابن عمير، والشاطبي، وابن حسون أئمة هذا الفن كلها مشحونة من ذلك، ولولا خشية الإطالة لأوردت لهم كثيراً من العيوب، وكيف يجوز لهم ذلك وقد قال ابن قزمان، وهو الإمام المخترع في خطبة ديوانه لما قال:

كما يجرد السيف من القراب

وجردت فني من الإعراب

فقد أخطأ وما أصاب

فمن دخل علي من هذا الباب

قال بعض زجالة المغرب: المصنف رحمه الله تعالى قال ذلك نهيًا عن تقصد الإعراب وتبعه والاستكثار منه لئلا يغلب على معظم أزجالهم التزيم، بدليل قوله، سيما أن قصد ولو نهي عنه مطلقاً، أو عن اليسير منه ثم استعمله هو وقومه يصدق عليه قول القائل:

عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

لأنته عن خلق وتأتي مثله

وإنما أراد بذلك الغالب، والعلماء يطلقون على الغالب حكم الكل مجازاً.

وقد جاء مثل ذلك في القرآن العظيم والحديث الصحيح؛ فأما ما جاء في القرآن الكريم فقوله تعالى: " شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس " يريد: غالب القرآن لأنه لم يترل فيه بأجمعه. وأما الحديث فقوله صلى الله عليه وسلم للمرأة التي جاءتته تشاوره: أي الرجلين تتزوج؟ فأشار عليها بأحدهما وقال لها عن الآخر: إن فلاناً لا يضع عصاه عن عاتقه، لا إنه في حال الصلاة والنوم كذلك، وإنما أراد النبي صلى الله عليه وسلم انه كثير الأسفار، فغالب وقته تكون عصاه على عاتقه.

ومنهم من قال: استعملها ضرورة وهو يعلم أنها عيوب.

ومنهم من قال: إن ذلك لم يكن مشروطاً عنده، وإنما عوام المتأخرين إبتدعوا ذلك، وأقاموا لهم قواعد هذه من جملتها، كابتداعهم شد الغلام وتسميته الراجح وراجح الرجح والقيم.

وذكر الإنسان اسمه في آخر زجله، ويسمونه الاستشهاد، ويثني فيه على نفسه الثناء البالغ، ولعب المناصف بالرهان على يد الحاكم أسوة بأرباب الملاعب، الذين هم أراذل الناس، والجلوس في الحلق في يوم معين، ويسمونه الطابق يقام لهم محفل من الجماري والحرافيش، وهذا لم يسمع بشيء منه للأئمة المتقدمين، ولا وجد لهم في كتاب.

ومنهم من قال: إن فصحاء المتأخرين حرموا ذلك، وحملوا على الإمام المخترع في قوله.

وجردت فني من الإعراب

على الإطلاق.

وهذا الذي أجمع عليه علماء فن الزجل، وهو أصح الأقوال، وأقرب الأحوال؛ وإلا فما الفرق بين الزجل والموشح، هذا معرب وهذا ملحون، ولحن الزجل إعرابه. وابن سناء الملك رحمه الله تعالى أظهر لنا الفرق بين الزجل والموشح بقريئة لطيفة، وهو أنه جعل في آخر غالب موشحاته خرجة مزجلة تارة تدخل عليها بأغصان من موشحه، وتكون الخرجة من نظم أئمة الزجالة، وتارة تكون الخرجة المزجلة من نظمه، وغالب أئمة الوشاحة فعلوا ذلك، ليظهر الفرق، وهو مثل الصبح ظاهر.

وعند الجميع أن التزيم في الموشح أقبح منه في الزجل، لأن من أعرب في الملحون فقد رد الشيء إلى أصله، ومن لحن في المعرب فقد زل عن الطريقتين وخالف المذهبين، وقد وقفت للإمام أبي بكر بن قزمان مع علمه أن التزيم في الموشح أقبح من التزيم في الزجل، على موشحة لم يسلم له بيت منها من التزيم، وقد أنبتها هنا بكماها، وهي هذه الموشحة:

أغصنُ ميادة مسن في أكفالي

معشر العذال بي من الأقمار

كل عانٍ صب

قد جنا من لاما

طلعت من قضب

ببدور ذا ما

في هواها قلبي

من قدود هاما

لعذابي غادة هيجت بلبالي

رية الخلخال قد براها الباري

روحه موصولا

عجبا للواق

حيث نال السولا

مستهامٌ زاهق

زاد فيه القبلا	وجمال رائق
شغفي قد زاده وهي لا ترعاني	نهيت والقالى لا يقيم أعداري
غايةً لا تدرك	غاييتي في الحسن
مثلها قط يدرك	لم يكن في عدن
لحظات تفتك	وكلت بجفنٍ
سحرها قد صاده وهو ذو أشبالي	فتكة الأبطال كهزبر ضاري
أين منها الشمس	أين منها البدر
والشفاه اللعس	زان فاها الدر
ليس فيها لبس	ولماها الخمر
وهي لي منقادة دون ما إدلالي	لم تزل عن بالي لا وعن أفكارى

فهذه الأبيات لم يخل منها بيت من التزنيـم والألفاظ الزجلية، ولعمري إن عذر الإمام لا يقبل في مثل هذا، لا سيما لفظة ذا في البيت الأول التي أراد بها ذاما وقد تقدم قول ابن سناء الملك وغيره من أن أئمة الوشاحة أتوا في آخر كل موشح معرب بخرجة مزجلة لظهور الفرق والتحلي برشاقة الزجل، وعدوبة ألفاظه، فمن ذلك قوله في موشحة، مطلعها:

وأنت جنة الصديق لولا تجنيك	البدر يحكيك لولا تتنيك
من لم يلاقك	لم يلق نعماً ونعيم
يوم فراقك	حملتني كل عظيم
على عناقك	وإن لي دنيا قديم
لأن لي قلب رقيق عساه يعديك	بالضم اجنيك للصدر ادنيك
قد كنت تأويه	رأيت ربعاً من بعيد
إذ أنت ثاويه	ثوى به الحسن الجديد
لا بل دراريه	وزهرة الدر النضيد
خلعتها روضاً أنيق على معانيك	فخرت تشكيك فهل معانيك
تحلو وتحلي	أهواك معسول القبل
من غير كحلي	يملاً عينيك الكحل

وأنت روضة الأمل
فكيف قل لي
أترك تجنيك وعاذلي فيك
في فمه مسك سحيق لما يسميك
يعذلني ومادري
لحسن حالي
وأنتي منك أرى
كنه الجمالي
بكل شيء نشتري
ولست غالي
بالروح يشريك من ليس يدريك
فكيف من ذاق الرحيق والشهد من فيك
والبيت الذي فيه الخرجة المزجلة:

لما أتى وقد أبا
يعطي وصاله
جردته من القبا
مع الغلاله
فقال خلي ذا الصبا
فقلت لا له
على آش نخليك وليش نداريك
ما في الهوى قاطع طريق لا بد يغريك

فقلت: سبحان المانح، لقد حيرني أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك، إن حكمت لتوشحه بالتقديم لما فيه من الرشاقة والسهولة والانسجام وعذوبة الألفاظ أتى في تزجيله بشهود لا ترد. ومن الغايات التي لا تدرك في الباب موشحة إبراهيم بن سهل الإشبيلي وهي هذه:

يا لحظات للفتن
في كسرهما أوفى نصيب
ترمي وكلي مقتلو
وكلها سهم مصيب
اللوم للآحي مباح
أما قبوله فلا
علقتها شمس صباح
بما ارتعاه في الفلا
كالظبي ثغره أفاح
ريقو طلا عيني طلا
يا ظبي خذ قلبي وطن
فذاك في الأفس غريب
وارتع قدمعي سلسلو
ومهجتي مرعى خصيب
من اللما والهور
فيها الحياة والأجل
سقى رياض الخفر
من خدها ورد الخجل
غرسه بالنظر
وأجتنيه بالقبل

وهزة الغصن الرطيب

فينثني منها قضيب

رضوان صدقا بالخبر

وقيل ما هذا بشر

لكن بصورة القمر

أمر الهوى أمر عجيب

زاد بنار الهجر طيب

برد اللمي وقد وقد

من نفسي ذاك البرد

ما خلته إلا الغيد

أسهر أجفان الكئيب

خف له عقل اللبيب

فراح وجدي معربا

وأدمعي أيدي سبا

غنى لعين الرقبا

أش لو كان الإنسان مريب

ذاك الذي قال الرقيب

فاهتز عطف غرامي وانجلي غزلي

تصيب باللمح قلب الفارس البطل

تريد الصبر يوم بيومي

ليس التكحل في العينين كالكحل

من نزعة الطبي الأغن

يجري لدمعي جدولو

أنت حورا أرسلك

قطعت القلوب لك

ما كنه إلا ملك

حتى ترك في المحن

كأن عشقي مندل

أهدت إلى نار العتاب

فلو لثمته لذاب

ثم لوت جيد كعاب

بطرفها الساجي وسن

والردف فيه ثقل

والبيت الذي فيه الخرجة المزجلة قوله:

أعربت عن وجدي البديع

شمل الهوى عندي جميع

فاستمعي صباً خليع

هذا الرقيب مثواه بطن

يا منيتي قم نعملو

ومن موشحاتي التي نسحتها على هذا المنوال قولي

جاءت تغازل بالأجفان والمقل

فيالها لحظات للخطا نصبت

فقلت يا منيتي وزينتي

كحل بعينيك قالت وهي في خجل

ماست بقامتها يوماً بذوي سلم
 فقلت يا قلب أعلام الهوى نصبت
 وأسود الخال مذ تبدا
 وقالت وطلعتها كالشمس في الحمل
 سألتها برد ما عندي من الكمدي
 قالت بريقي أطفئها إذا التهبت
 وغرقتني بدمع طرفي
 ألم تخف بللاً ناديت يا أملي
 بالله يا برق إن أومضت في الثغر
 قف بالثنيات واذكرني إذا عذبت
 وارسل عليل النسيم خلفي
 عسى تصحح جسماً بالفراق بلي
 رقم السوالف يروينا بمسند
 وثغرها قد روى عن طيب مولده
 والخال أضحى عن المبرد
 عن الصفا عن مذاق الشهد والعسل
 إنسان مقلتها لما رأى كلفي
 فمت بالسيف قهراً والحشا نهبت
 ناديته والدموع طوفان
 إلى م تعجل في قتلي بلا زلل

هذا الموشح لكون أنه مبني على التضمين، ضمننت في الخرجة المرحلة التي من نظم الحاج علي بن مقاتل الحموي، والتضمين يسمونه عند الزجالة دخولاً وهو قولي:

وغادة أشرق الوادي بطلعتها
 قد رقت غزلي من غزل مقلتها
 شكوتها سهرًا قالت وقد سلبت
 عقلي بلطف معانيها وحشمتها

فإنني يا أبا الغرام

إن كنت سهران من هيامي

وغزل أجفانو رقق حاشية غزلي

أعشق غزال مقلو قد أسهرت مقلي

قلت: لم أطلق عنان القلم في تدقيق الفرق بين الموشح والزجل، إلا ليتأكد عند الطالب أن التزنيـم الذي هو عبارة عن اللحن في الموشح والإعراب في الزجل من الذنوب التي تغتفر للبارع الماهر فإنه غير عاجز عن اجتنابه، ولهذا ما اغتفر للحاج علي بن مقاتل قوله في معارضته رسيـله القيم شهاب الدين أحمد الأمشاطي:

ما وخضره ومنظر حسن

خدك وعارضك والثغر يا حسن

ومطلع الأمشاطي الذي عارضه ابن مقاتل سالم من ذلك وهو:

وافتني يا حسن

أسباني في هواك

وخلقك الحسن

جمالك الجميل

وكيف يعتفر للحاج علي بن مقاتل هذا القدر الزائد، وقد عابوا على الإمام أبي بكر بن قزمان استعمال بعض الألفاظ الصحيحة الفصيحة العربية، حيث قال في زجله الذي مطلعـه:

ولا هو فلاح

ليس هو عندي قوام

إلا شرب الشراب وعشق الملاح وقال في البيت الذي استعمل فيه الألفاظ الفصيحة مشيراً إلى الفقيه بقوله:

يقـل لك لا، قـلو خذ تـملا

تعرف اسما هنا يقل

هي القهوة والمدام والطلا

منها إذنك ملا هي

والحميا والخندريس والراح

فهذه ست لفظات في أسماء الخمر لم يعتفر لابن قزمان استعمالها في الزجل مع أنه لم يدخل عليها حركة إعراب، وإنما قالوا: هذه لغة العرب العرباء وقد تقدم أن تحريك لفظة هي أقبح العيوب. وعابوا عليه في بعض أزراله الشحنا، وقالوا: هذه لفظة فصيحة لم ينطق بها غير الفصحاء ومعناها: العداوة. وعابوا عليه أيضاً قوله في مطلع زجل، وهو:

فرج لعمرى كربة وأنس

نظر بأهداب عينو وعبس

وقالوا: لفظة لعمرى مختصة بالعرب وهي قسم لهم معناها: وحياتك، إن كانت للمخاطب، وللمتكلم: وحياتي، وقد فسر المفسرون قوله تعالى للنبي عليه السلام " لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون " أي:

وحياتك.

وعابوا عليه أيضاً في بعض أزجاله استعمال لفظة الزرد.

وعابوا عليه استعمال لفظه مرحباً في بعض مطالع أزجاله، وقالوا لفظه مرحباً و أهلاً وسهلاً بإجماع سائر النحاة ألفاظ عربية، وهي منصوبة أبداً بتقدير فعل محذوف تقديره أتيت أهلاً ولقيت سهلاً وصادفت مرحباً وما أشبه ذلك، وأول من قالها سيف بن ذي يزن ملك العرب، قالها لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم حين بشره بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم في عام ولادته، وأسلم على يده لما وفد عليه ثم تداولها العرب بعده.

وذكر الشيخ صفى الدين الحلبي في كتابه المسمى بالعاطل الحالي والمرخص الغالي أن الأستاذ شهاب الدين أحمد الأمشاطي عابها على الحاج علي ابن مقاتل إمام هذا الفن - أعني فن الزجل - حيث قال في بعض مطالعه:

بمجيئه وألف سهلاً

جا الرسول مرحباً أهلاً

وعاب عليه في موضع آخر لفظة ألما وأعيد فقال في آخر زجله:

في الزجل ما يصلح أفسد

دوني من ليس فعلو يحمد

ونصب أهلاً وسهلاً

ونظم ألما واغيد

وهذه اللفظات الأربع قد استعملها ابن قزمان وأثبتها في ديوانه ووقفت عليها.

ومما سأمحوا في استعماله من هذه الألفاظ الفصيحة اللغوية لفظة الغ.

فإنهم عابوها على أحد أئمة هذا الفن. وهو محمد بن حسون لما أوردها في بعض مطالعه وهو:

والغ عنم ولى

ارفع قطيعك وطيب وتملاً

وقالوا هذا لفظة عربية خالصة.

ومن المنوعات عند علماء هذا الفن إعراب الألفاظ بالحروف أو بالحركات، أما من الإعراب بالحروف، فكقول بن قزمان:

ولا تقبل من جا يسألك فيه

أنا حدو على الشراب وانفيه

الله قد أوقعوا بجرمو لنا

هذا ريح الشراب يفوح من فيه

فقد أعرب في هذا البيت لفظة فيه بالياء، وهذا حكمها لأنها من الأمثلة الستة التي رفعها بالواو ونصبها

بالألف وجرها بالياء، وهذا أفحش من الإعراب بالحركات.

وللأستاذ أبي عبد الله محمد بن حسون في بعض مطالعه:

مع الذي قطع قلبي هو اه
لو كان معو خاتماً يحاكي فاه
فم صغير يفتن لمن يراه
من صغر ولم يقدر يختمو

فقد أعرب فاه بالألف في حالة النصب وهذا حكمها.

وأما الإعراب بالحركات فكثير، وأزجالهم مشحونة منه، وقد جمع ابن حسون بين الإعراب بالحروف والحركات في لغطة فاه ولغظه فم في مطلعته. ومن العيوب القبيحة عندهم فتح كاف الخطاب، واستعمال أدوات النحو المختصة كالسين وسوف اللتين هما في ظروف الزمان، وكاف التشبيه، وإذ، وثم، وهمزة القطع إذا كان ما قبلها محرراً بحركة إعراب كقولهم:

إن كنت اخطيت في عشقك بيني

وكقول صفى الدين الحلبي في بعض أزجاله:

ريت حبيبي في الرياض يمرح

فلو لم يحرك النون أخطأ الوزن.

وأما السين فكقول ابن قزمان:

بين أقرانو وأترابو

صبي نعشق من السوق

وإن خطر بيبك ستدريه

وأما سوف فكقول ابن الحسين بن عمير في بعض مطالعه:

جهدى نصبر على حبيب قلبي

سوف يرى ما يلاقي من ظلمي

حن ظلمي وجار

عند نبت العذار

وأما منذ فكقول ابن قزمان في بعض مطالعه:

حق هو ليس يمزح

منذ فقدت الحبيب ليس نفرح

ومثله قول الأستاذ أبي عبد الله بن حسون في بعض مطالع أزجاله:

لي تقدير شهر

لم نطيق سهر

منذ عشقت الفلانية

ولا لقيت ليلة مهنية

وأما: مذ، واذ، وثم، وكاف التشبيه، فاشهر من قفا نيك في القوم.

ومن المنوعات عندهم استعمال الحركات الثقيلة التي عابها ابن قزمان على ابن نمارة، كالمذّ الفاحش

والهمز الذي تقدم ذكره، وقد استعمل هو وأهل عصره ما هو أفحش من ذلك وأثقل، وهو القائل في بيت من بعض أزراله:

كل ثناء جميل فيه مجموع
وكل شاعر بمدحو مولوع
عاليش ينكرون الجميل المصنوع
وأش يفيد الإنكار
إما مكافأة وإما إقرار

فهذه المدة في لفظ ثناء أفحش من غيرها لاقتراها بالهمز والتنوين، وإثبات السكون في ينكرون أفحش. ومن المنوعات عندهم التشديد في غير التصغير، فإنهم مجمعون على لفظه كقولهم: فميم، وخذيد، وغدير، وأما في غير التصغير فممنوع، والتشديد الذي استقلوه في غير المصغر فكقول علي بن نمارة في مطلع زجله الذي سارت به الركبان:

كن كما شيت مهاود أو تياه
من يحبك ويقدر أن يعصيك
أو بعيد أو قريب
ليس يسمى حبيب

فقد شدد الميم من لفظة يسمى وكان يمكنه تخفيفها مع حسن السبك والتصريف، ويقول: ذاك ما يسمى حبيب، فيفر من عقادة التشديد إلى حلاوة الرشاقة والسهولة، فالقوم نها عن ذلك واستعملوه وكانوا كما قال السموّل:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول

وأما التشديد الذي لا يحمل من ثقله فكقول ابن قزمان في بعض مطالعه المسلسلة:

كيف يرى قلبي سرور
سكرى المراشف
غصني المعاطف
لولا ما هو مخالف
حين يرى ظلي ينفور
أنا مت بالله فانظور في كفني
وحبيب قلبي منصور هجرني

ومن المنوعات المستقلة: التنوين، وقد نها عنه واستعملوه، فمن ذلك قول ابن قزمان في خرجة بيت من بعض أزراله:

ليس لذي البنيه
الملاح رعيه
في الدنيا نظير
وهي كالأمير

آش قمر هيّ

أبهي وأملح بكثير

في جمال وطلعه

وقد وخذّ

فقد نون لفظة قدّ وجاءت في غاية الثقل، وكاف التشبيه في لفظة الأمير أثقل منها. ومن المنوعات عندهم إثبات نون الجمع، وقد عابوه على البغاددة في أزجالهم، وجعلوه من أكبر عيوبهم مع علمهم أن لغتهم تقتضي ذلك ولكن أثبتها ابن قزمان في عدة مواضع، منها قوله في خرجة بيت مطلعته:

يامن عليه للسفر علامه

الحمد لله على السلامة

ويقول في خرجة بيت معتذراً من تأنيث المدام:

جايز هو لا تغمزون لما

قلنت مكان المدام مدامه

فقد أثبت النون في تغمزون وفتحها مع أن اللفظة مجزومة بلا الناهية. ومن المنوعات عندهم تضمين آية من كتاب الله عز وجل، فقد نقلوا عن ابن قزمان أنه قال: القرآن الكريم لا يكون إلا معرباً والزجل لا ينبغي أن يدخله الإعراب، فمن ضمن آية من كتاب الله تعالى فقد زخم، وقد وجد له زجل في تهنتة بمولود مطلعته:

محسن اخلاقو تجد

من يهنا بولد

وقال في بعض أبياته:

اخبئوه خلف الستور

وأكثروا من النذور

وأطلقوا حولو البخور

واكتبوا بالزنجفور

من حوالين المهدي

قل هو الله أحد

وقال الأستاذ أبو الحسن بن عمير في مطلع زجل:

سافر حبيبي ونا بعدو مقيم

أعوذ بالله السميع العليم

ومن المنوعات عندهم وعندنا استعمال الظاء مع الضاد في قافية واحدة، وقد وجدنا لابن قزمان، وهو إمام الزجل، في بيت من أزجاله:

كذا غرض ذا العشق فيما مضى

إن صدّ محبوبك فأت في لظى

وإن نظر مرة بعين الرضا

فقد نظر ألف بعين الغضب

فلفظة لظى من ذوات الظاء لا يجوز استعمالها مع الضاد عند جميع أهل الأدب.

ومن المنوعات عندهم، وعند جميع أهل الأدب أيضاً استعمال الذال المعجمة مع الدال المهملة، وقد وجدنا له ولغيره في مواضع كثيرة، فمن ذلك قول ابن قرمان في زجل كتبه إلى ممدوحه يطلب منه حنطة بسبب رمضان مطلعته وهو:

قد تدري ما نريد

إش نحتج إن نقل لك

من قمحك الجديد

قوم اعطيني نصيبي

ويقول في خرجة بيت منه وهو:

لابد من سميذ

والعيد قرب والافطار

ولفظة سميذ بالذال المعجمة، بإجماع أهل الأدب.

وقد وجدنا للاستاذ مدغليس من ذلك في بيت من أزجاله وهو:

والطيور عليه تغرد

قوم ترى النسيم يولول

فوق بساط من الزمرد

والسما تنثر جواهر

وادي كالسيف المجرد

وفي وسط المرج الأخضر

فلفظة الزمرد من ذوات الذال المعجمة، قلت: ذكرت بأشكال الفرق بين الذال والدال والضاد والطاء على مثل هذه الأئمة رتبة الحاج علي بن مقاتل الحموي تغمده الله برحمته ورضوانه وإجماع الناس على تقديمه لإمامه هذا الفن فإنه نظم زجلين جانس بين الذال والدال والضاد والطاء فيهما قصرت فحول الأدب عن إدراكهما، وتا الله لم ينسج الحريري في الفرق بين الضاد والطاء على منوالهما، فمطلع أحد الزجلين قوله:

لو رأهم عابد لهام ولخاض

إن مع معشقي جفون والحاظ

حفظوا باب أنسائه صلاتو أدا

ومع انو من سحر عينيه إذا

والبيت الذي نظمته بعد المطلع قوله:

حضرني لما دا يغيب عني
حتى أنو يصير قريب مني
أيش تضيق الدنيا على ذهني
واش ما قد حفظت من الفاظ
ولا نطلب يومي شراب و غذا
يا نسيم السحر على حبي....
لله ووصيه بالعاشق المسبى
وإن تيسر لك أن ترى قلبي
انتحل من بعدك إلى أن قاط
وعلى خدو الدار حين قد حدا
حن ذكرني في عتبو و حد النهار
وبقي هو يحمار ونا نصفار
فلا تعجب من خدو كيف يحمار
ما الحيا في الخدود إذا ما اغتاظ
فلا تعجب مني ومنه فدا

هذا الزجل الذي أئنع زهره في حدائق الأدب حفظته ورياحين الشيبية غضة، ولكني شد عني بيته الرابع لعدم التفاتي إلى المذاكرة بهذا الفن، ولما بهر المصنف رحمه الله تعالى به عقول أئمة هذا الفن، وقالوا: إنه ما نسج على منواله ولا ينسج، شفعه بزجل ثان حير فيه الإفهام، وقالت علماء هذا الفن: ما نشك أن علياً إمام.

والزجل الثاني لم يتأخر في صباة الحاصل منه غير مطلع وبيت وهو:

ما الفراق في الهوى
على تركو إذ هو قوى حظي
نسأل الله منو يزيد حظي
قد هويت ريم طرفو الجوارح يصيد
حر مملوك إلا أنو سيد كل سيد
إلا خصمو ألد
نلق وصلو من كل لذة ألد
على قلبي ما أخوفني من كيدو
مثل يوسف إستاذ في قيدو

قد قنصهم بحسنو في صيدو
كم بقيت يوم من تقبلوا لفضي
رقة الحاشية بتاع لفظي

والعجب فيه أن الملوك الصيد
ومعو سبحان الله خال وخذ
حتى خذت العبير بتاعو وخذ

سبحان المانح؛ هذه طريق لم يسلكها أحد من المتقدمين ولا من المتأخرين غير الحاج علي بن مقاتل رحمه الله تعالى.

ونظم رسالة الأستاذ شهاب الدين أحمد الأمشاطي رحمه الله تعالى زجلاً أفرق فيه بين الذال والداد، والطاء والضاد، كاد أن يسيل رقة، ولكن لم يجانسه، لأن الدرب إلى المجانسة غير سالك ومطلع الزجل:

وغارق في دمعي بعضي
كاتم سري حافظ عهدي
واحترق بنارو قلبي
بالضرر ويقصد حربي
نقرب لو فيبعد قربي
نحبو يزيد في بغضي
يشتكى وهو المتعدي

بعضي باللهيب متظي
وأنا بالصبر متغذي
طرفي قد غرق في دمعي
مع معشوق يطابق نفعي
نطلب وصلو يطلب قطعي
نحفظو ما يختار حفظي
نعنذر ونا المتأذي

وهذا الزجل البديع لم يحضرن منه أيضاً لكثرة الإعراض عن هذا الفن غير هذا المطلع والبيت.
ومن المنوعات عند أهل هذا الفن أيضاً وهو قبيح جداً إظهار حركة المنادى المضاف، وذكرت هنا قصة اتفقت للشيخ عز الدين الموصلبي رحمه الله تعالى مع زجالة دمشق المحروسة؛ وما ذاك إلا أنه نظم زجلاً مطلعاً:

صبحتني طلعة المحبوب
قلت هذا غاية المطلوب

يا صباح الخير والخيره
حن رأيت وجهو السعيد مقبل

فقوله يا صباح الخير إعراب المنادى المضاف على شرطه.

وأما زجالة دمشق المحروسة فإنهم ترقبوا مرور الشيخ عز الدين عليهم ليلاً بسبب هذا المطلع فأسمعوه غاية ما يكره، وشاعت القصة بالبلاد الشامية، وكان الشيخ عز الدين رحمه الله تعالى يعنت عليهم في غالب الأوقات.

والذي أقوله: إن المتأخرين من الشعراء لم يتخلص منهم أحد من تبعات عيوب الزجل غير الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى، فإن الشيخ عز الدين أيضاً قال في بعض مطالع أزجاله:

ضياء النور في ليل الشعر قمري جلا

فلو لم يعرب لفظة النور بالإضافة اخطأ الوزن.

وأما الشيخ صفى الدين الحلبي فقد تقدم ما أوردنا عليه من العيوب، وتقدمه ابن النبيه في زجله المشهور بأشياء دلت على أنه لم يكن له بمعرفة هذا الفن إمام، والزجل مطلعته:

والحبيب حلو رشيق

الزمان سعيد مواتي

والشراب أصفر مروق

والربيع بساطو أخضر

وقال في البيت:

من عبير أو مسك أذفر

والنسيم سحر تنفس

من سلاف الغيم تسكر

والغصون بحال نداما

ينجلي في نقش أخضر

والغدِير بمد معصم

في الغنا مزوم ومطلق

والهزار يعمل طرايق

فقوله في الغصن الأول من البيت، أو مسك أذفر لا يستقيم معه الوزن إلا بعيين فاحشين لم يغتفرا له من أحد من الزجالة.

أما أن ينون الكاف لتصير الهمزة في لفظة أذفر همزة وصل ويستقيم الوزن بالتنونين، وهو من العيوب الفاحشة عندهم، وإما أن يحرك الكاف في لفظة مسك، وتكون الهمزة همزة قطع فقد تقدم أن همزة القطع بعد المتحرك عندهم خطأ في الوزن، واستشهدت بنقدهم على الشيخ صفى الدين الحلبي حيث قال في بعض أزجاله وهو:

بين أقرانوا وأترابو

ريت حبيبي في الرياض يمرح

فلو لم يحرك النون في لفظة بين أخطأ الوزن، وهذا العيب يسمونه عند الزجالة الطفر والجمز، وهو العيب الذي احتجوا به على الحاج علي بن مقاتل في بديهته مع رسالة الأستاذ شهاب الدين أحمد الأمشاطي، فإن الحاج علي قال في بعض الأبيات:

من بعض آياتو

جل الإله منشييه

نارو وجناتو

خدو المضرج فيه

والورد فيه بيديه

في غير أوقاتهم

فقوله: من بعض آياتو وفي غير أوقاتهم، مما نحن فيه وقول ابن نبيه في الغصن الثاني:

من سلاف الغيم تسكر .

فالغيم مجرورة بالإضافة وهي على الوضع في الإعراب، والكلام على نقش أخضر في الغصن الثالث كالكلام على مسك أذفر في الأول، وقال ابن نبيه في البيت الثاني من زجله المذكور ولم يسلم له العيوب المنهي عنها غصن ولا خرقة.

وقال في البيت الثاني:

إن نجم الليل غرب

هات يا ساقى الحميا

كيف لا يشرب ويطرب

من يكون البدر ساقيه

للهوم دوا مجرب

أنت والأوتار والكاس

دع يجي ويركب أبلق

لا تخاف الصبح يهجم

قلت: أما حركات الإعراب المنهي عنها في نظم الزجل فظاهرة في أغصان البيت؛ وأما قوله في الخرقة: لا تخاف الصبح، فلا يجوز عند الشعراء ولا عند الزجالة، فالعيب عند الشعراء أن لا الناهية تجزم الفعل المضارع والشيخ كمال الدين بن نبيه لم يجزم، والعيب عند الزجالة فتح الفاء من لفظة تخاف فإنها من الذنوب التي لم تغفر عندهم، وأما الصبح فقد نصبها غفر الله له على المفعولية.

وقال في البيت الثالث:

ونا مسكين في جهنم

ذا المليح في الجنة سيدو

واخره في ذا الفميم

آه على قبلة في خديدو

وعذاره ذا المنمنم

لو ترى حمرة خدودو

معدني بخصر معلق

كان ترى ثوب أطلس أحمر

فلفظة عذاره في الغصن الثالث منصوبة على المفعولية، وهي عيب ولو لم ينصبها أخطأ الوزن.

وقال في البيت الرابع وتخلص منه إلى المديح وهو:

لا تتم ما دمت تمكن

يا نديم أسمع نصيحا

ما ترى مبهج ومحسن

الصباح ومثلو في الكاس

والشقيق حمرا في صفرا

كنوا رايات شاه أرمن

ملك بحال جمالو

ما خلق وليس يخلق

الكلام على شاه أرمن هنا في الغصن الثالث، كالكلام على مسك أذفر ونقش أخضر في البيت الأول، وإعراب لفظة ملك في الخرجة فظاهر لم يفتقر إلى الكلام عليه، ولكن تحريكه ليس من العيوب الفاحشة. قوله:

ورشيقة المعاطف

رأتو بين الصناجق

والغبار بحال غمايم

والسيوف بحال بوارق

وسنا جبينو يرمي

بشعاع على الخلايق

زعقت حرام زوجي

والنبي غدا نطلق

هذا البيت يكاد يكون سالماً لولا لفظة رشيقة فإنها مجرورة بواو رب، وقد تقدم قولي: إن الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى خلص هذا الرجل من جميع هذه العيوب المذكورة، ولكنه لم ينظم غير زجل واحد عارض به ابن نبيه في هذا الرجل، والذي يظهر لي أن الشيخ جمال الدين ما عارضه إلا وقد ظهرت له هذه العيوب.

ومطلع الشيخ جمال الدين بن نباتة هو:

لي حبيب ماعو عوينات

ذاب نقول في عشقا إحق

وقت نبصرها نواعس

نبكي طول الليل ونقلق

يا قلق جفني بكاتب

حسنو ندرا وي ندرا

وقعت عينه لعيني

بدموع في الحب تجرا

فالنظر توقيعو ثابت

بقلوب عشاقو يقرا

وحواشي خدو ريحان

هذا هو الموت المحقق

والبيت الثاني:

ما ترى مملح ومحلا

هذي الأوصاف الشهيا

جلست خط العذير

في الخدود كف المشيا

ويرى قلبي معلق

بيه ولا يحفل هو بيا

يا دلال خطو المجلس

ونكال قلبي المعلق

والمدايح في المؤيد	لي يطيب فيه التغزل
والعلوم والرأي الأرشد	الملك في الجود وفي الباس
والغمام في الجذب يرفد	لا تقول لي البرق يلمع
وندا يمينو أغدق	فسنا جبينوا نور
لا ربيع إلا زمانوا	لا غمام إلا ابن أيوب
والفصاحة في لسانو	السماحة في يمينو
آش تقولوا في سنانو	ونقول في الحرب لعداه
في لقا عدوها الأزرق	آش تقول سود الجوانح
المكارم نظم الأقوال	علمتيني لك يا سلطان
والموشحات والازجال	في القصايد والمقاطع
في المديح مطرب والأغزال	خذ ترى هذا الزجيل
وشي في القمصان يبقب	لاستماع اشيا تطنطن

قلت: الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى خلص جميع هذا الزجل من العيوب التي تقدم ذكرها وأوردها على أئمة الزجل من المغاربة وغيرهم، ولكن رتبته في النظم سافلة بالنسبة إلى علو مقام منازيمه في الشعر والموشح، والذي يظهر إليّ أنه نظمه نظم خائف لعلمي أنه ما نظم غيره والله أعلم. وقد عن لي أن أثبت هنا زجلاً من أزجالي الخالية من العيوب ليتضح للطالب سلوك هذه الطرق الغريبة، فمن ذلك ما نظمته، وأزهار الشبيبة يانعة، ومواردها عذبة، وهو هذا الزجل:

تأنس غزالي الشرود	حين رقت نظم الغزل
وقول سود بها قلت سود	وقال صف عيوني الوقاح
لا يكون في عدلو يزيد	من أبصر حبيبي حسن
وامتثلت لو ما يريد	فيوم عيد رسم بالبعاد
ما كنت أمشي لو من بعيد	ولو كان قريب الديار
سائل ما جرا في العهد	فيا دمعي اجري وقف
يا طبيب لا تخلف وعود	وقل للحبيب الطبيب

ومنشي البشر من تراب
وراح جا التعب والعذاب
رأني عذولي مصاب
بانسراح في غيظ الحسود
اطف ما بقلبي وقود
رق لي ونحوي عطف
ومحلا ليالي الحلف
حلى الجعدي هداك سلف
يفوق حسن وشي البرود
وخضر عيش أيام زرود
ومال من رقيق الغزل
فأني كثير الخجل
سارت مثل سير المثل
حين أقام عليه الحدود
قلت نا قنتيل الخدود
عيني لما جد الرحيل
وقم يا ضالع الهجر سيل
قاطع قلبي حملي ثقيل
قبل أن كان لخيري جحود
يا جمالي آش ذا القعود
حين عذبت طعم المياه
ولطف المزاج عنو تاه
نصيبي كفاني نداه
لا تعدم محبك وجود

حن نيران هواه أشعلت
ما خلا في جسمي رمق
وجاه دمعي سايل نهر
قال تريد أفودو إليك
قلت أي بالنبي يا عذول
ذا القاسي بلين قامتو
وحلف ذا الغصين بالوفا
وقال لي نظام سالفو
وماس تحت تزريد عذار
تذكرت بأن النقا
تغزلت فيه اطربوا
وقال خلي وصف الخدود
استطردت في وصفها
حددني بسيف ناظرو
وقال كيف رأيت حالتك
قادني وقطر دموع
وهيج لعقلي وقال
قلت قوم يا قلبي الحزين
ومبرك ما كنا جميع
وقال حين حسابي جمل
من بارق عذيب الثغر
طعم الراح بقي في انحراف
وجوري الخدود لو يكون
تعود يا حبيبي وطبيب

فمن وجنتيك والثغر

قصدوا يا حبيبي ورود

قد طال الشرح بإيراد هذه الأزجال هنا، وإن الرجوع إلى بقية ما يجر من عيوب الزجل التي يمنع من استعمالها، فمن ذلك حركة الجار والمحرور، كقول قيم مصر خلف بن الغباري في بعض مطالعه:

الحمد لله الحميد المجيد

قادر ومعلا قدر من مجدو

مقصود وموجود في العدم والوجود

في السر والجهر أقصدو توجدو

فقوله: الحمد لله مبتدأ وخبر، والخبر هو الجار والمحرور في " الله " و " الحميد " صفة للجار والمحرور، وهي تابعة الموصوف في الجر، فالربع الأول من المطلع ليس بزجل بل بشعر صحيح معرب وهو من البحر السريع. وأما قوله في الربع الثاني قادر ومعلا قدر من مجدو فهو منوال الزجل الذي لم ينسج على غيره، وقوله: ومعلا شرع الزجل في الوزن والرسم فإنه لو قال وما أعلا أتى بهمزة القطع التي هي من أكبر عيوب فن الزجل.

ومن المنوعات عندهم الانتقال من كللي إلى قمري وهو الخبن عند العروضيين كالانتقال من فاعلن إلى فعلين فإن كان في الحشو جاز، وإن كان في القافية التي هي العروض والضرب عدة الزجالة خطأ في الوزن كقول الأستاذ شهاب الدين أحمد الأمشاطي رسيل الحاج علي بن مقاتل في بعض مطالعه:

يا قلبي الهوى طيعو وطيع ما أمر

وعصي من رجع لك في المحبة يلوم

ون كان من تحبو بعد وصلو هجر

كن صابر فلا ذاك دام ولا ذا يدوم

وقال في بعض خرجات هذا الزجل:

لو كانت الناس تسجد أو تصوم لبشر

لك كنت نسجد على الدوام ونصوم

فأتى بقمري موضع كللي في محل العروض والضرب وهذا عندهم خطأ في الوزن اللهم إلا أن يكون في الحشو لأن علماء الزجل منعوا من استعمال الزجافات العروضية وعدوها خطأ في الوزن وهي جائزة في الشعر، وزادوا على بحور الشعر التي هي ستة عشر بجزاً من الأوزان ما لا ينحصر، وقال الشيخ عز الدين الموصلبي رحمه الله تعالى في تقييد له على بعض أزجالي: فإن الزجل أوزانه ما انحصرت عدداً وسبله متشعبة، فهي تتلو طرائق قددا، قول الشاعر:

وله محاسن كلهن بدائع

وله جموع فرقت وطرائق

فكأنه الثوب المجندر طرقه

لا تستقيم وفيه معنى رائق

وفن الزجل لم تزل أوزانه إلى عصرنا هذا متجددة. ولكنها غير جائزة في الشعر لخروجها عن البحور المعهودة، ومخالفة كل شطر من البيت الآخر في القصر والطول والقافية، وبناء البيت الواحد على عدة أوزان وقواف، وتقصير الأفعال إلى غاية من القصر، ولهم ملكة في تحرير الوزن وقوة في أن يستخرجوا منه وزناً ثانياً ولم يتغير اللفظ. ورأيتهم يستعينون على ذلك بالدمج، ويكون اللزوم في بعض الكلمة التي دمجها، وربما أنشدك أحدهم وزناً اخترعه وسألك عن لزومه فقلت: هذا بيت بقافية أو بقافيتين، فإذا قطعه لك وجدته مطلعاً أو بيتاً بسبع قواف يكون المطلع بقافيتين، والبيت أغصانه وخرجته بخمس قواف كقولهم:

كم نقاسي شقا وزماني رمانى وما عاد لقاسي بقا

فإذا قطعه لك على ما ذكرته لك أيها المتأدب، كان مطلعاً وبيتاً بسبع قواف، وتقطيع المطلع:

كم نقاسي شقا

والبيت: وزما ني رما ني وما عاد لقاسي بقا.

ولهم أغرب من ذلك وأقصر على هذا النمط وهو:

والجاموس جا يسبح

البحر أصبح فرجا

وهذا أيضاً في الصورة مطلع واحد بقافيتين وتقطيعه:

والجاموس جا يسبح

البحر أصبح فرجا

فهذا بعد التقطيع انتظم منه مطلع وبيت لست قواف.

ولهم أغرب من ذلك وأقصر على هذا النمط، والمراد هنا بالقصر قصر الوزن وهو:

زمزم حرر درهم

هذا أيضاً مطلع واحد، فإذا قطعته انتظم منه بيت ومطلع بست قواف، وتقطيعه هذا:

زمزم حرر درهم

فهذه من أشكال النكت القصار في فنهم.

قلت: قد تقرر وعلم أن الفنون سبعة لا اختلاف في عددها بين أهل البلاد، وهي: الشعر، والموشح، والدوبيت، والزجل، والمواليا، والكان وكان، والقوما، فهذه الفنون الأربع التي جاءت بعد المقدم من الشعر، والموشح، والدوبيت الإعراب فيها غير جائز وهو التزيم بعينه، وقد تقدم وتقرر وعلم، ولكن الزجل أعلاها رتبة وأشرفها محلاً لكثرة أوزانه وعدوبة ألفاظه ورشاقته، ومدائن المسلمين المختصة بهم دون النصارى بالأندلس أربعة: وهي إشبيلية، وقرطبة، وبلنسية، ومالقة. والذين خرجوا منها من الزجالة

سبعة وهم: مخلف بن راشد، الحبيط البرذعي، ابن قزمان ، مدغليس، ابن المليكة، الحمال وهو متأخر. وأول ما نظموا الأزجال جعلوها قصائد وأبياتاً محررة في أبحر عروض العرب بقافية واحدة كالقريض لا يغيره بغير اللحن واللفظ العامي، وسموها القصائد الزجاجية، فمن ذلك للشيخ أبي عبد الله مدغليس قصيدة في بحر الرمل عدتها ثلاثون بيتاً مطلعها:

ترد الحق ليس لمن يهوى عقل

الهوى حملني ما لا يحتمل

إن حماني من ذا تأخير الأجل

ليس نفع في مثلها ما دمت حيّ

منها وهو لطيف:

فسقط لي نقطة العين واشتعل

اشتعل قلبي بذا العشق زمان

وهذه القصائد لما كثرت واختلفت عدلوا عن الوزن الواحد العربي إلى تفرغ الأوزان المتنوعة، وتضعيف لزومات القوافي، وترتيب الأغصان بعد المطالع، والخرجات بعد الأغصان إلى أن صار فناً لهم بمفردهم. واختلفوا فيمن اخترع الزجل، فقيل: إن مخترعه ابن غزلة المقدم ذكره، استخرجه من الموشح لأن الموشح مطالع وأغصان وخرجات، وكذلك الزجل والفرق بينهما الإعراب في الموشح واللحن في الزجل وقيل: بل مخلف بن راشد، وكان هو إمام الزجل قبل ابن قزمان. وكان ينظم الزجل بالقوي من الكلام، فلما ظهر أبو بكر بن قزمان ونظم السهل الرقيق مال الناس إليه وصار هو الإمام بعده، وكتب إليه ينكت عليه في استعمال يابس الكلام القوي:

زجلك يا ابن راشد قوي متين

وإن كان هو بالقوة فالحملين

يريد: إن كان النظم بالقوة فالحمالون أولى به من أهل الأدب.

وقيل: بل مخترعه مدغليس وهذا السم مركب من كلمتين أصله مضغ الليس والليس جمع ليسة وهي ليقة الدواة، وذلك لأنه كان صغيراً بالمكتب يمزغ ليقته، والمصريون يبدلون الضاد دالاً فانطلق عليه هذا الاسم وعرف به وكنيته في ديوانه أبو عبد الله بن الحاج، عُرف بمدغليس والصحيح أنه ليس بمخترعه، لأنه عارض ابن قزمان، وهذا دليل على أنه معاصره أو متأخر عنه. فمن السهل الرقيق لابن قزمان قوله في مطلع زجل:

لم تجد في كل موضع

ثلاث أشيا في البساتين

شمّ واتنزّه و اسمع

النسيم والخضرة والطير

وقوله:

بقي ترجع فقي

لولا الشراب واش كان

ومن رقيق مدغليس قوله في مطلع زجل:

لو نهيت في السبت والحدّ

ليس نتوب عن ذا المشريه

ودفعت الجلد للحد

قد أعرت آذاني للوم

ومن لطائف ابن غزلة قوله في مطلع:

واش يفيد الجري

بعد ذبحك جريت يا فرخي

وعنيقك بري

كنت تجري من قبل ما تذبح

ومن لطائف ابن قزمان قوله في مطلع وبيت:

أش تقول يصدقوا

قالوا عني بأني عاشق فيك

الناس بالحكم ينطق

ياحبيبي لقيت كثير في

يا نور عيني ما تحدثت بيه

هذا شي والنبي

لا ولا خضت فيه

ولَ والله خطر على بالي

نمشي كل من نلتقيه

إنما في الطريق أنا

ليسألني عندما نلتقو

يدنو ميني وسرعه

من صحيح تعشقو

ويقول لي فلان بحق الله

ويعجبني قول مدغليس:

تلتين يوم لي في الصلاة والصيام

أنا راضي عن الشراب والطعام

وقال ابن قزمان في مطلع:

الحمد لله على السلامة

يامن عليه للسفر علامه

ويعجبني قول ابن قزمان في خرجه:

ان الحبيب قد عزم أن يهروب

انهل شويّ يا صاح لا تقروب

قلت: غاية المغاربة في نظم الزجل أن يتناولوا إلى التعلق بأذيال السهولة والرقّة، فإن العقادة غالبية على

أزجالهم وتراكييها، كقول ابن قزمان في ترك الخمر في بيت:

إنما مذهبي الطلا

يتركوا قوم ونا لا

كان يكون أرجلي العقاب

يا من على منو بين ملا

ويكون فمي الدلو

ولكن لما دخل الزجل الديار المصرية ونظمه المصريون حلّوا موارده بعدوبة ألفاظهم ورشاقته، وزادوا محاسنه بالزوائد المصرية، وحلوه في الأذواق لما صارت حلاوته قاهرية، ثم تفكّه بعد ذلك من أهل الشام بشمرات المعاني الشهية، وحلوه بشعار التورية والنكت الأدبية، كقول الحاج علي بن مقاتل في بيت:

ما ندري في عشقو لمن نلتجي

دي الذي وصالو عمري نرتجي

راح اثنين في اثنين وما ريت أحد

وعد يوم الاثنين لعندي يجي

وقال في بيت زجل آخر:

قبله في الجيد المسمى

قلت هبني يا ذا الألما

سمنتي في الجيد ما يغلا

قال بروحك قلت مهما

وقال رسيه الأستاذ شهاب الدين أحمد الأمشاطي معارضاً في الوزن والقافية وأجاد في قوله:

لا يكون بحياتي بالله

قلي والرقيب في غفله

قلت لو من فمك أحلا

لك حلت في جيدي قبله

ومن المرقص قوله في بيت بردفة زائدة:

قلت ليه قصه تعطف

غصن بان أوعدني وخلف

وقال من رأى من قبلك إنسان

دار وقال حين عني انحرف

صار عليه معطوف غصين البان بالورق

ويعجبني في هذا الباب قول محمد بن قيس قيم حلب:

بالله اش تقولوا ما أنا مطالبني

تفور الما في البواطي بالعقار

حتى تصفي الكاس على شواربي

وكلما أملك من مال أنفقوا

ومثله في الحسن قوله في بيت وهو:

نرمي الأقداح من يديه

لجل من ساق هجرو ليه

وحرّم بعدو عليه

وعلى الراوق صليب

ما العنب وما الزبيب

وقال الأستاذ شمس الدين محمد الأعرج قيم الديار المصرية في مطلع من أزجاله:

لا تكشف اللثام

يا طلعة الهلال

في شهر ذا الصيام

تفطر القلوب

ومما يعزى إليه من المطالع البديعة قوله:

بالأنوار مبرقع

وجه المشرقية

من الشرق تطلع

قمر هي والأقمار

وله من الأبيات العامة قوله:

كشف الساق ندره ملاح ذا الزمان

قامت قيامة قلبي وزادو هوان

القيامه تقوم بكشف الساق

فلا تعجب من قصتي يا فلان

ويعجبني في باب الاستعارة والتشبيه قول أحمد القماح راجح مصر في بيت ومطلع:

شعرية سودا وكحلو دون مرود

كف الظلام أرخى على وجه الليل

بما الضيا كحل الظلام الأسود

وبدى المصباح من بين جفونو يغسل

البيت

وشي تصيبو قد زها واتفضض

وفي الأراضي قوم ترى شي نذهب

إلا أنها من ذا النداء ليس تغمض

النرجس أحداقو الشهل نعسانه

وأصفر ويحكي لنا في الأبيض

والأقحوان ثغرو ضحك وتبسم

ولا فصوص كارب في بلاد توجد

مازعفران فوقه نصافي مطبوع

قد أسمرو فيها مسامير عسجد

ولا بحال شمسات لجين مبرودات

وأبلغ منه في التشبيه وأبدع قول الحاج علي بن مقاتل في بيت زجل الخياط حيث قال:

بالعارض أحسن صفات

قال فشبة خدي وقم عرض

فيها جمع الشتات

قلت حلة وردية من أطلس

رقم محلاه نبات

وعليها دار الطراز تنبت

قال ما هو إلا ثوب شرب والخمر
فيه خيالات خيوطها تلعب
من جفون يغزلوا
دم من تقتلوا
ورق لاعب

ويعجبني في الرشاقة والجزالة وتسيير الأمثال قول علي النجار قيم الشام في مطلع زجل:

جاسهدي سرق منامي
وآش قلنتو أنه خسر فيه
راح باعوا بيع المسامح
كيف ما باع اللص رابح

وأنشدني من لفظه لنفسه الشيخ شمس الدين محمد بن الطراح قيم الشام على هذه الطريقة بيتاً من بعض أزجاله قوله:

شدة ما تدوم
إن العسر شوم
يا بني لا تسوم
والسماح رباح

يا أخوا الأدب ما يتمكن الشاعر في بيت شعره من إرسال هذه الأمثال ولا يتوصل في باب إعرابه إلى فتح هذه الأقفال، فإن هذا البيت فيه ثلاثة أمثال سيارة ولفظة يا بني لا تسوم يصلح أن تكون مثلاً رابعاً. وأنشدني لنفسه أيضاً على طريقة التورية مطلعاً بديعاً وهو:

غصني النضير في الحسن مالوا نظير
وإن ميلوا عني نسيم الدلال
وحياة هيف قدو ما نعشق سواه
وما عطف خلوه يميل مع هواه

ويعجبني في هذا الباب مطلع القيم أحمد بن العطار قيم الشام في الصراع وراحح الرجاح في الزجل وهو هذا:

على قامة قدك في ليل شعرك
فعببنا كيف ما يزول الظلام
أشرقت طلعتك وهي تامه
وادي شمس الضحى على قامه

وأنشدني من لفظه لنفسه الكريم مولانا قاضي القضاة عماد الدين إسماعيل بن القضاة تغمده الله برحمته ورضوانه بيتاً من زجل جعله لمصونات التواري حذراً وهو هذا

لولا أنت يا حاجبو تحجبني
ولولا أنت يا قواموا عادل
لماذا ورد سايل دموعي محروم
بثيت إليك سر حالي المكتوم
ولولا أنك ياردفو متقل
بحمل شوقي إليه ثقلتك

ولولا أنك يا جفنو مكسور

لكننت دين الوصال كفلتاك

انظر أيها المتأمل إلى هذه الجزالة والرفقة والسهولة مع إطلاق أعنة التورية واجتناب العيوب المنهي عنها في نظم الزجل.

ومن ذلك قولي في بعض أزجالي في بيت هو:

شكيت لساقو حالتي

وقلت لو كم ذا الجفا

أظهر لي وجهين وانثنى

وخلف لي عرقوب في الوفا

ناديت وقد أمسيت فقير

إليه نريد منو الصفا

ما هو فقيري في الطريق

يا جاعل السادات خدم

تمشي بوجهين بيننا

والناس تقول صاحب قدم

ومنه قولي:

لاحظني باللاحاظ وقال

آش قلت ناديت يا قمر

هذي مسالك ضيقة

تقتلني في لمح البصر

قال لي ورسام عارضي

حين بان على ورد الخفر

قال إن مرسومو شريف

في طي منشور وحكم

آش قلت في هذا العذار

فقلت هو كما رسم

ومنه قولي تابعاً ذكر العذار:

قال لي عدو لك قد راه

لام قلت يا زين الوجود

لام كي تكوي مهجتي

في نصبها بين الورود

وهي بلامين دايرة

بيني وفي لوح الخدود

قلم عذارك قد جرى

حين أحكمو باري النسم

قلي صحيح يا عاشقي

جرى القلم بما حكم

ومنه قولي:

رنا لي بسهام المقل

ناديت بآمال خاييه

يا دمعتي لا تسبلي

هذي مصيبة صاييه

قلي وقد أمسيت مصاب

ولي غداير شاييه

إن الذي أحيا الرمم
فقلت وحياتك قسم

غرت من وجدتي بقيت حاير
إحرسو وكون عليه ناظر
النقي العارض وهو داير
جيت لطرفو قلت يا كسلان
قلي اعذرني أنا نعسان

وضنيت قلبي الخبر عندي
ويجري اليوم على خدي
أنت ما عندك نظر بعدي
على خدو قلو يافتان
راقب الله ما أنا إنسان

في بروج السعد لاح نجومو
أطلقوا وأجراه على رسمو
فالحزين قلبي لشوم قسمو
راد يوري قولي بالبهتان
ليس نصوم يا بدر في شعبان

بدمعي قبلني وارحم ترحم
قال: ميل إلى خدي لأنو أنعم
وارعى النظر ناديت يا غصني الناضر

بحياتي أقسم يا قتيل

قسم لي ذا الحسن البديع

وقلت في بيت من غير هذا الوزن وهو:

عارضو لما عشق خدو
جيت إلى طرفو وناديت لو
بعد حين نظرت في خدو
وعليه قد دب بالسرقه
هكذا هي عادة الحراس

ومنه قولي:

قلت لو قد ذبت في عشقك
قلت لو دمعي قد اتلون
دار إلى إنسان مقلتي قلو
ما ترى ما قد جرى منك
دخل الماتحتي من بعدك

ومنه قوله:

بدر شعبان منيتي لما
ثلت ليه قصة بفيض دمعي
قلت لو دام الله إطلاقك
إيش قد أذنب حتى فطرتو
قال يصوم عن الوصال ناديت

وقلت في غيره من زجل مطلعته هو:

ناديت لمن شرقني حين غربني
وقول نعم وانعم على مشتاقك
قلي نهار صف وجنتي والعارض

شعة الورد حين ضاع شذاها الموجود
قلي وخالي والجبين ناديت
قال هات صفات شعري وسرح باحسان
فقلت لو الله قد أسبغ ظلك
رأيت طراز الآس عليه صار دابر
لو بلال يراعي الصبح بأمر القادر
في التورية واظهر لي معنى يفهم
إلا أنت جيت ظالم وشعرك أظلم

ومنه قولي

دعى إلى الروض ماس بأهيف قدو
راد الغصن يحكي هيف خطر اتو
واعوجاج قدو يقول القايل
حكم نسيم الروض بقطع أكمامو
فقلت يا مقصوف وعادل قدو
فغنت الأطيوار فرح بالخاطر
قام ناظرو في اللين ودا شي ظاهر
إني على غير العدالة ساير
والزهر من فوقو عليه ابتسم
كم لي أقيمك ونت ما نتقوم

ومنه قولي

يوم زارني طابع بقرب العاصي
أسقاني من بارد لمام مشروبي
وفي حرم حسنو تمتع طرفي
قال يا بن حجة فوز بهذي الوقفة
وبعد ذا زمزم وغاب في الحضرة
وماه قد أصبح مثل عيشي رايق
أنساني أيام العذيب في بارق
عند السقاية في مقام الفايق
فما بقي قعده لمن هو مغرم
يا محلا في وسط المقام ما زمزم

وسألني بعض مشايخ حماة المحروسة كل منهم من أدرك الحاج علي بن مقاتل رحمه الله تعالى، وأنا إذ ذاك في عنفوان الشبيبة ومبادئ النظم أن أعارض لهم زجلاً من أزجاله، وها زجل قافيته لامية، ذكروا أن الحاج علي المذكور كان يتغالي به في المجالس كثيراً، فعارضته وأثبت الرجلين هنا ليتفكحه المتأمل في جنى الجنتين ويتنزه في حدائق الروضتين، فزجل الحاج علي بن مقاتل رحمه الله هو:

يا مليح الشباب يا حلو الشمايل
فيها فترة تخطر لمن بها يجهل
إنها سهلة والمنون منها أسهل
ورباب الفضل والتشابه يا سهل
قالوا عينيك نرجس وصدغيك خمائل
صبتها أسياف معقربات الحمائل
إن عينيك تعمل في قلبي عمائل

من ذا يحمل حور العوينات بتاعك
وأنت سلطان على المعاشيق وماعك

رمح قامة بلينها اشتد باعك

وحواجب قسي على جفن نابل

قلي إنسان هذا الذي تثني عنو

وتقول في مديحك أنو وأنو

ما رأيت في الملاح مليح أحلامنو

قلت لو لا فتش وقايس وقابل

راح عذولي كما وصيتو وجاني

وقال الله محبوبك ابن الفلاني

قلت: هو هو ومن بعشقو بلاني

قلي ذاك الذي ألف قدو مايل

موطا خلقو مليح وما أعلا قدرو

وما أترف صدرو المبرز في خدرو

قلي قلي واش وصلك إلى صدرو

قلت نهديه ممزقات الغلايل

وزجل المعارضة قولي وهو:

حبي واصل ناديت لو حين راد يفاصل

يا عذارو عليش تسيل عند ذكرو

ويا ردفو بسك تزيد على خصرو

ويا طرفوكم ذا الكسل وأنت يا شعرو

كم تجي عرض لاصطباري تحاول

عند قسمة محاسنو عز مجدو

قام عذارو وجرى على صحن خدو

سهمها أنفذ في القلب من سحر بابل

وعلى هينتك هذا العام وقابل

عند صحتي المعشوق فليس لو مماثل

هي المدلة وكل شيء لردلايل

لا تقاطع بالحرمة يا حبي واصل

لله أقصر لا كم في عشقي تطاول

وعلى الخصر أسبل الردف بعدو
 والشعر قال أنا على أقدامو سايل
 والصبح قال أنا على وجهو قابل
 وحن أصبح غنى في حسنو وظرفو
 أبصرو نهر دمعي صار يجري خلفو
 علم أنو سايل رمقني بطرفو
 وأراد ينهرو ناديت بالوسايل
 في مديح ثغرو لي عقود جوهريّة
 وفي ريقو ألفاظي جت سكرية
 وحن أسبغ لي ظل شعرو عليه
 صار مقيلي وكيف لمدحو نقايل
 في الأصايل عاتبت بدري رثى لي
 وحلف لي أنو ما يقطع وصالي
 والتفتت نحوي قلت لو يا غزالي
 طيبة أصلك دلت عليها الخصايل
 وحن أخصب بالحسن روضة خدودو
 ورياض وصلي أمحلوا من صدودو
 قلت خاف الإله يا ناقض عهودو
 تدرو آش قلبي لما أراد أن يماحل
 وأنت غرة بدر تشرق لنا في الأصايل
 أش تقول في روض الوصال قلت ماحل

ولقد سهوت عن ذكر الشيخ إبراهيم المعمار ولو ذكرته قدمته في الترتيب، فإن المعمار رحمه الله ما شيد
 بيوت أزجاله بغير التورية والنكت الأدبية، وقد تقدم أنه ما كان يعد نفسه من فرسان العربية ولكن نبات
 الأدب الحلو كان مغروساً في طباعه، فمن ذلك قوله في مطلع زجل هو:

ذي الزيادة حديثها قد شاع
 بقا وجهو ذراع وقمحو باع

نيلنا أوفى وزاد بحمد الله
 فرحوا الناس وعبس الخزان

وقال في بيت من بليق:

قد بليت من العذاب
قلبي ذاب وراسي شاب
على كتفو أربع شباب
آش أصف لك وآش أقول
من هوى الأربع فصول

ما بلي أحد بما
من نكد ومن غبن
واعجبوا من شيخ حمل
وما حين يثاقلوا
ياما قاست السنأ

ومنه قوله:

في بواكير لا تسال
وروايي وتلال
إلا إن كان بالجمال
ونجايبى فحول
من سنة تل العجول
أمس مع وجه المليح
دا يريد منى القبيح
راسي طول جديد صحيح
استحيت من ناس عدول
واستتر عرضي بطول
قبطي شغلو الديونا
وبقيت في عنونا
قتلتي عامل ونا
حن ترك لي فيه نزول
ولا ريت منو وصول
كان في تحصيلو فرص
لا تقول صيد القنص
حن رآه رقص

عمري جندي الحلقة
كم قطعت من جبال
تقطع البر الطويل
ومراكيبى فلا
ولي أهون ذي الجحوش
واخبرك آش تم لي
حين لزمتمو قال لأبوه
قام شحتني كان على
وقع الطول ما التفت
رحت راسي منكشف
وعشق قلبي صبي
اشتغل بو خاطري
منيت لو ناظر على
ضاع حسابي في هواه
ونصرف من حاصل
وحصل عندي مليح
هكذا صيد الغزال
دا مليح زايد كثير

وحصل عندو حصول

قلت قوم بلا فضول

كنت نهواه بالسماع

قلت ذي قوة طباع

ولو نغمه في الإقاع

قال أراك تدري الأصول

إلا هو عايز دخول

وانذهل لما رآه

صار يقول ذا ابن من

ومغنيا ذا البديع

حن دخل لا منزلي

حيثوتركس ضربو ساز

بالقضيبي وقعت لو

وخصاك صفق مليح

ومن مطالعه اللطيفة قوله:

رب سلم لا يمنعوننا التين

منعوننا ما العنب يسين

ومنها:

أقوام عرر ساسه أطراف

وسبهم بالزين والكاف

في ذي المناحيس الأوباش

يتحدثوا فينا بالسين

ومن بلاليقه المشهورة قوله:

يساوي عندي ألفين خمرا

مئقال حشيش من ذي الخضرا

منه:

بذي البزيرة ونحكر

قصدو يتور بي الصفرا

مالذ عيشي حين نسكر

ومن يلمني في الأخضر

ومنه:

وأنا من السطلة مخنوق

ناديت لو مور قلبي أرا

جئنا مكان يسمى الجورا

عديت عليه ألفين جرا

أش دي المصيبة قوم عنا

ناديت لو أصبر لي سنا

نذكر نهار في باب اللوق

ريت مغربي فتنة مخلوق

دورت بو ديك الدور

عبرت وحدي الفاخورا

دار قلبي ما عندك حنا

دخيلك أولد الحرا

لا تسئل يوم النازعات عما
ونت آيات الختمة ليك مرسلات
والله يا مدثر ومزمل
ونت بك نوح نجا وموسى سأل
حقت الحاقة أنك المصطفى
فتبارك من أرسلك لنا
والزواج حللتو لنا والطلاق
ياما يلقي المنافقون ومنتك
لنها صابرة وبالصبر ممتحنه
ونت كم لك مجادلة والحديد
والإله الرحمن رفع مجدك
ورتفع طود عزك وأعين عداك
قاف تراها في حزبها يا من بنى
فوق الأحقاف جت جاثية والدخان
وأنت أمرها يكون شورى
كانت أعداك زمر وطير سعدك
والله أسماك يس بقيب فاطر
وبسجدة شكرك عطيت حكمه
وبسعدك كسرت جيش الروم
عن عيون العدى وجا فيك قصص
شعراء الوقت حواليك فرقان
أفلح المؤمنون بحج البيت
بشروا بك يا طه ومن سعدك
عسى أنو يراك يكهف الأمم سود

تلتقي أعداك يا مصطفى لأجلك
هل أتى في يوم القيامة أحد مثلك
أسمع الجن في الكتاب فضلك
أن يكون لك وزير وقد رجاك
لو نتاجي في البحر نون ناجاك
جيت بتحليل أمور وتحريم أمور
ونهار التغابن المذكور
وقفة الجمعة صفها مشكور
وفي يوم الحشر تبغي نداك
ما يقع يوم الواقعة أعداك
بانشقاق القمر يا نجم الكمال
للدموع ذاربات من الاشتعال
حجرات الإسلام بفتح القتال
قد محى زخرفها واطهر حماك
فصلت بالعذاب وغافر حماك
صاد جوارح صافاتهم بالعذاب
للأعادي يا من سبا الأحزاب
ما عطيتها لقمان وقولي صواب
وعليك سدى العنكبوت وخفاك
عدد النمل جل من اصطفاك
في مديحك حارو بصحب النور
لما زاروك والأنبياء بالظهور
ابن مريم بشر وادي النذور
فسبحان من قد أراد ارتقاك

ضاق من الاشتياق إلى ملتقائك

قاصف الرعد والسحاب الثقال

وهو قابل التوبة زايد الأنفال

مائدة رزقو للنساء والرجال

بين آدم ومن ضلالك هداك

بقرة تجعلها بسبعة فداك

وعلى النحل حجر مسكنها

بحمد الله منجى إبراهيم مرسل

نجا يوسف وهود ويونس

ولو أعراف تنتشق بانعامو

واصطفى من قديم لآل عمران

وفي عيد الأضحى نراك تذبح

قلت: وهنا فوائد ينبغي أن نختتم هذا الكتاب بها، منها أن الزجل في اللغة هو الصوت، يقال: سحاب زجل، إذا كان فيه الرعد، ويقال لصوت الأحجار والحديد والجماد أيضاً: صوت وزجل، وقد وريت بذلك في براعة استهلال الخطبة بقولي: الحمد لله الذي علا زجل الملائكة في عالم الملكوت بحمده. وإنما سمي هذا الفن زجلاً لأنه لا يلتذ به وتفهم مقاطع أوزانه حتى يغنى به ويصوت، وقد قسمه مخترعوه إلى أربعة أقسام يفرق بينها بمضمونها المفهوم لا بالأوزان والوزوم، فلقبوا ما تضمن الخمري والزهري زجلاً، وما تضمن الهزل والخلاعة بليقاً. وما تضمن الهجاء والتلب قرقياً. وما تضمن المواعظ والحكمة مكفراً، وهو مشتق من تكفير الذنوب، وأطلقوا على كل ما أعرب بعض ألفاظه من هذه الأربعة لقب المزم. وشرط أبيات الزجل أن تكون أربعة، والدخول على المطلع مقام بيت آخر، وهذا شرطهم في البداية، فإن زاد على ذلك كان مقبولاً وإن نظم أقل من أربعة أبيات كان ناقصاً. وأما الدخول على المطالع فهو التضمن بعينه، ولكن تسمية الزجالة دخولاً، ويأتون فيه العجايب والغرائب، وقد تقدم قول الشيخ عز الدين الموصللي في الزجل:

وله جموع فرقت وطرائق

لا تستقيم وفيه معنى رائق

وله محاسن كلهن بدائع

فكأنه الثوب المجندر طرقة

فالزجل بهذا الاعتبار فن معتبر بخلاف بقية الفنون تطفل أعيان الشعراء على نظمه، فمنهم من ابتسمت له ثغور كاساته عن شنب الحبيب، ومنهم من لم تسمح له بالتقبيل وفاته الشنب، وناهيك بيديهة الحاج علي بن مقاتل مع رسيطة الأستاذ شهاب الدين أحمد الأمشاطي رحمه الله تعالى، فإن أهل دمشق وحماة الحروستين بذلا بسبب ذلك جعلوا، واضطراب الإقليم، واتصلت القضية بمولانا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سقى الله ثراه وأدخل فيها الشيخ جمال الدين بن نباتة مع أنير الدين بن حيان وابن سيد الناس، وكتبوا تقارير تقضي أن زجل الحاج علي بن مقاتل هو الغالب.

وأما أهل دمشق فإنهم كتبوا بخلاف ذلك، لكون ابن الأمشاطي من عندهم، وكانت تقاربط المشايخ بين أوراقه، وإنما في محنة اللنك ذهبت مع الكتب، ومطلع الأمشاطي:

لك خديج. مذ حاز ملح. روضو اصطبج. فيه واغتبج
خال لون سبج. يسبي المهج. زهرو خرج. وظهر فرج
من هام. به ليس يلام

ومطلع ابن مقاتل:

طرفي لمح. بدري اتضح. لي فيه ملح. ماعو حدق
إذا اختلج. فيها الدعج. يسبي المهج. ولو نسج
رقام. عذارو لام

قلت: هنا نكتة لطيفة أدبية خطر لي أن أتخف المتأمل بها، وما ذلك إلا أن القطاعين بين الرجلين بدمشق الحروسة قالوا للأمشاطي: لا بد أن تأتي باسمك في أول مطلعك بحيث نعلم زجلك من زجل ابن مقاتل، والمطلع مع قصر ألفاظه مشتمل من القوافي على عشرة مرصعة في كل قرينة، ولفظة أحمد يضيق عنها في المطلع قصر الألفاظ فألجأته الضرورة إلى الدمج وقال: لك خديج. قد حاز ملح والله أعلم. والفرق بين المطلعين في الحسن ظاهر، وإلى الآن لم يجسر أديب أن يعارض الزجلين لكثرة القوافي وضيق المسالك، ولكن نظم الأستاذ شهاب الدين أحمد الأمشاطي بعد البدية زجلاً وجهزه إلى المغرب عاد مختلفاً ونظم الحاج علي بن مقاتل زجلاً خضع له أهل المشرق والمغرب موجهاً في خياط، وقد عن لي أن أختتم هذا الكتاب بالزجلين ربما يحسن به الختام فزجل الأمشاطي:

معشوق وأنفق الأكياس

أعشق لك من الأكياس

ون أوعد. وانعم. أنهب. وإن صال. إن هان. وأرفع قدرو

فوق العين وفوق الراس

يمن للجسد أبلى

سبحان من لي قد أبلا

عن عشقو ما يتسلا

قلبي يسلا فيه إلا

ما ظهر لي في أعلا

مملح يالله ما أحلا

خد فيه رياض أجناس

غصن قامتو المياس

مورد .مرقم . مذهب . فيه خال . جنان . يمنع زهرو

يجني والعيون حراس

زاد معشوقي في هجري

ومن طول جفاه صدري

وضاع من وقوف أمري

ووتر للنكد أقواس

ما انكد . ما أعظم . مصعب . أحوال . حيران . ضيع عمرو

ما بين الرجا والياس

شامتو من العنبر

وريقو من السكر

وخذو شقيق أحمر

وثغرو الزكي الأنفاس

منضد . منظم . مغرب . اشغال . رحمان . رصع درو

وأنبت في الشقيق الآس

قلي بدري دي الكامل

عن عشقي بقيت مايل

ناديت والجسد ناحل

قول آش ما شتهيت لا باس

ونشهد . ونعلم . من حب . لو مال . ما كان . وسع صدرو

لهذا الهم والوسواس

قطعت النهار سكران

من خمر رقيق ملوان

مع ندمان وأي ندمان

وساقي ظريف لباس

وخلا الدموع تجري

قد ضاق واتسع ضري

في الياس والرجا عمري

صار قلبي لها برجاس

وعنقو من المرمر

ولفظو من الجوهر

أنبت آس عذار أخضر

ليس إليه ثغر ينقاس

حن رأى الرقيب غافل

خوف من ضدي والعاذل

وفيض الدموع سايل

أن تدري خلاف الناس

بالكاسات بالعيدان

على روض زهر ألوان

ومعشوق مليح فتان

حن جا سلطان الأغلاس

مؤيد .على أدهم. يسحب. أذيال. نيران. شعشع خمر و

أضاء الكاس بحال مقياس

ومن اعتدال عقلو

الأمشاطي من فضلو

لما أن سمع زجلو

شهد كل عاقل لو

من بعدو ولا قبلو

وقال ما رأى مثلو

وفي أعلا الرتب دواس

في بحر الأدب غطاس

من أحمد. ماجا نظم. ولا رتب. زجال. بلسان. ينشد شعرو

ون راح يسكر الجلاس

وزجل الحاج علي بن مقاتل الذي سارت به الركبان بقافية واحدة، لأنه استخدم معاني التورية، ورسيلة استخدم الألفاظ لترصيع كثرة القوافي التي عجز عن ترصيعها أهل عصره. ومطلع الرجل:

بالجمال جملو

نهوى خياط سبحان تبارك من

نرقي شكلوا الطلو

بالمفصل وآية الكرسي

لفظ عقلي قمر

دي لخليع الجديد نهار قلبي

نظمك المبتكر

صف جيبني وشعري في تفصيل

الدجى في السحر

قلت خيط الصباح يفتح ذيل

حن عليه أسبلو

قلبي قصرت بل هو ستر الله

بالهلال كللو

حايك الزرقا فاتق الخضرا

بالعارض أحسن صفات

قال فطيل في خدي وعرض

فيها جمعات شتات

قلت حلة وردية من اطلس

رقم محلاه نبات

وعليها دار الطراز نبت

دم من تقتلو

قال ما هو إلا ثوب شرب والحمرة

من جفون يغزلو

فيه خيالات خيوط ورق لاعب

فما في ذا القياس

قلت كف العتاب في الصنعة

بذراعين تباس

أطواقي عايزة تمنطقها

بالفتوة لباس

بالوصول طولو

بالوفا ذيلو

من بكير صابحو

حن وقف صافحو

يا لخجل فاتحو

فرو حين فصلو

وعليه فضلو

طال بحكم القدر

في عيون الإبر

ومقص الخبر

ونسي آش قلت لو

ولا عن مرسلو

كم قد أخلى جيوب

تجرحه في القلوب

ولي فرج كروب

والذي نسألو

الاستوى فصلو

ويرقع كلام

بس تلفق كلام

قتري والسلام

عند باب منزلو

واش معو نعملو

واكسني ثوب وقار ولبسني

ون جا تخليصي عرض بين إيديك

ون قصر باعي عن صفة مدحك

جاز في بستان مشهر القمصان

مثل كف المنثور في كمو

وقميص الشقيق من أكمامو

وقضيب الخلاف وقف عراه

وأوثق ازرار الورد في جيبو

خاط لي ثوب من سقام قصير نسجو

حتى إن البدن لضعفي ضاع

راح عذولي بشكلي لو اشتكل

وجا مذبوح القلب متمزق

ولا فرج لو كرب عن قلبو

دي الحسيني نبيقة العشاق

وبزوره من العيوب كم لو

قلت فضه نملا لك الجيب زور

خلا سري المكتوم مشهر فيه

جيبو مقلوب ورا ب على غير

جا الفقيه في حبيبي يعذاني

قلت دعني فقيه في تمزيقي

قلي حبك لو ظلم سلارى

سلب إسلامي لما حدرني

وقطع عاتقي وضربني

قلت هذا سلطان على كرسية
لو طعن في قبائل العشاق
ولو انو يستعرض أتباعو
والملك لو الترتيب في أجنادو
ولو رام الركوب على الأكتاف
قال فشبه مقصي والغزلي
قلت فيهم تركيب على تضريب
من عذارك والقذ والمبسم
وهي لام لك والعذول يدري
واكتبوا في تغازل الألغاز
بعد طيب الوصال قطع وصلي
حتى خلا بيني وبين الموت
ويرى ظاهري صحيح لكن
ون هو طول شقة بعادي
جهزوا القطن والكفن والماء
ذا الكلام ينخلع ويتفرد
ويفرج ويندرج أصلو
ويبطن من حبكة التحريم
انو يطوى وينتشر موزون
ذا الزجل قاسيون على الأعدا
وعلى أرباب المعرفة من ريش
للصغير والكبير نقول عني
لا تزيدو على علي وإن كان
هذا الأبلق والشقرا والميدان

إن هو جار أو عدل
بالقنا والأسل
بالسروج والحلل
واش ما قال يقبلوا
يحتجوا يحملو
فيه وفي الكستبان
على تخريم بنان
وهو بنت العيان
آخرو وأولوا
وانقطعوا واشكلوا
ووصل النقطاع
إما باع أو ذراع
باطني في النزاع
والانقطاع أوصلو
وغسلوا وفصلوا
 ويفصل مليح
ويفتح صحيح
ويزرر ولو
آخرو وأولو
جد ما فيه سخف
النعامات أخف
واحذر احذر تخف
تشتهوا تعملوا
اركبوا وادخلوا

هذا آخر ما ألفته من فن الزجل، وأوردته على أئمته من المغاربة وأهل مصر والشام من العيوب التي نأوا عنها واستعملوها، وما أوردته من المحاسن البديعة للفريقين، وقد سميت بلوغ الأمل في فن الزجل، ولعمري إن التسمية هنا تطابق المسمى، فإن الطالب لم يبلغ أمله من غير هذا الكتاب، ولو طلب هذه المحاسن والفوائد من غيره توارث عنه بالحجاب أقولها لو بلغت ما عسى، والطبل لا تضرب تحت الكسا، والمسؤول من الله الذي نرجو مراحمه أن يمن بحسن الخاتمة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قلت: تقدم وتقرر أن الفنون سبعة لا خلاف في عددها بين أهل هذه البلاد، فالشعر قد شعر الناس بإعرابه وإعراب ما أضيف إليه من فن الموشح والدوبيت، وقد تقدم أيضاً قولي في الفرق بين الموشح والزجل، وهذه الفنون الأربعة وهي الزجل، والمواليا، وكان وكان، والقوما ما للعربيات في مدائن لحنها مجال، ولما قالت سهولتها بتحريم الإعراب قال الناس: هذا هو السحر الحلال، تجذب للمتأدب طبعها بسهولة مجونها إلى الخلاعة، وإن لم يلق المبلغ على تدبير مصطلحها جابر كان أجنبياً من الصناعة. والزجل أعلاها رتبة. وتقدم قولي: إن أوزانه ما انحصرت عدداً وسبله متشعبة فهي تتلو الطرائق قدداً. وقد عن أن أنظم شمل الزجل بإتباعه من الفنون الثلاثة وهي: المواليا وكان وكان، والقوما. وصار في الخاطر إلى ذلك انبعاث، وهذه الفنون تختلف بحسب اختلاف المخترعين واختلاف البلاد وتفاوت الاصطلاح، فمنها وزن واحد وأربع قواف وهي المواليا، وسموه البرزخ لأنه يحتمل الإعراب واللحن، وإنما اللحن أحسن وأليق، وإنما كان يحتمل الإعراب في أوائل استخراجها لأن أهل واسط اخترعوه من البحر البسيط وجعلوا كل بيتين منه أربعة أفعال بقافية واحدة وتغزلوا به ومدحوا وهجوا والجميع معرب، إلى أن وصل إلى البغاددة فزادوه باللحن سهولة وعدوبة، وما قصد بقولهم: إنه يحتمل الإعراب واللحن، أن يكون بعض ألفاظ البيت معربة وبعضها ملحونة، فإن هذا عندهم من أقبح العيوب التي لا تجوز عندهم البتة، وهو التزيم في الزجل، وإنما المقصود أن يكون المعرب منه نوعاً بمفرده ويكون منه ملحوناً باصطلاح المتأخرين لا يدخله الإعراب، كقول القائل:

أعبر على الباب قالت من لغيري دون أيا سمير السرى خلف المعنى كون
هيا تربع تدحرج دا ندفف جون نما إذا كان لنا حاجة بذلي بون

الفن الثالث

الكان وكان

وله وزن واحد وقافية واحدة، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني، ولا تكون قافيته إلا مردوفة قبل حرف الروي بأحد حروف العلة، ومخترعوه البغداديون، ثم تداوله الناس في البلاد. وسمي بذلك لأنه أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه غير الحكايات والخرافات والمنصوبات فكان قائله يحكي ما كان وكان، إلى أن كثر واتسع طريق النظم فيه، فنظموا فيه المواعظ والرقائق والزهديات والمواعظ فيه أكثر منها ابن الجوزي نور الله ضريحه وحلت بهذا الألباب ولكن البغاددة لم يقصدوا غير تسيير الأمثال وكثرة المماجنة والخلاعة، فمن ذلك قول القائل منه:

لنا بغمز الحواجب	كلام تفسير و منو
وأم الأخرس تعرف	بلغوة الخرسان
لا شي بلاشي تأخذ	إن لم تقدم تقدمه
فازرع إذا ردت تحصد	غدا يجي نيسان
إن كنت تعشق وتفزع	من لا يجي ليلة غدا
ما في شروط المحبة	عاشق يكون فزعان
لقمة من القدر تكفي	لمن يشم الراححة
ونصف لقمة تتخم	لمن يكو شبعان
قبل كفوف أضدادك	حتى يلوح لك قطعها
فإن ظفرت فقطع	عروقها بأمان
كم يصبر التاج حتى	يعلو على راس الملك
من حر ضرب المطارق	والكور والسندان
وما ملك مصر يوسف	حتى سجن وسقي غصص
من أخوتو وزليخا	والقيد والسجان
لا تفرحي يا جديدة	ما حب حدّ ما حبني
من فرد كلمة رمانى	كن الوفا ما كان
كل الذخاير تنفع	حتى الذنوب السالفة
إذا ذكرها العاصي	يستغفر الرحمان

من كان قريب يحرد لها
تخاصمو القرعان
أحرد من أربع مية سنة
إن لم تكن حردان

والشخص يرمي كلمة
فكل من قال طاسة
ما نفرض إلا تحرد
وأنت آش لك معنى

ومن لطايف البغادة أيضاً في هذا الفن قول بعضهم وهو:

إلى من أحسننوا يسيء
ما كنت قط أراه
قالوا صبي قد ولفه
قالوا كتاب الباه
وإلا على آش قلبي أنا
بعض الذي تلقاه
وتعفص أنفك بالحرد
أو بن شاه هنشاه

أنا عرفتو حظي
لو كنت أعشق ظلي
فلو مشيتو مع ابني
ولو حملتو مصحف
أنا عليك إذا فزع
لا تلتقي في شبابك
من حال ما أبصرك تنفر
كأنك بن الخليفة

قلت: ويعجبني قول القائل:

تكون سلطان الهوى
تصبر على الهجران
والنهر عندك منقطع
واش يعمل القوام

وحش وحق المصحف
وما يكن لك قدرة
ويعجبني أيضاً قول القائل:
الحار عندك بارد
والعين صا ما فيها

الفن الرابع

القوما

وله وزنان: الأول منهما، بيته مركب من أربعة أفعال، منها ثلاثة متساوية في الوزن والقافية والآخر هو الثالث أطول منها وهو مهمل بغير قافية.

والوزن الثاني منها بيته مركب من ثلاثة أفعال مختلفة الوزن متفقة القافية يكون القفل الأول منها أقصر

من الثاني والثاني أقصر من الثالث.

ومخترعه البغداديون أيضاً في دولة الخلفاء من بني العباس برسم السحور في شهر رمضان المعظم. واشتقاق اسمه من قول المغنين للسحر كل بيت منه بعد غناء الرمل والجزل: قوما للسحور ينبهون به رب المتزل ويذكرون فيه مدحه والدعاء له وتقاضيه بالأنغام، فأطلقوا عليه هذا الاسم وصار علماً له. ثم لما شاع وكثر فيه التصنيف نظموا فيه الغزل والزهد وسائر الأعوان كما قبله من الفنون. وقيل: إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر. والصحيح أنه مخترع من قبله، وكان الناصر يطرب له، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر في نظم القوما والغناء به، وأراد أن يعرف الخليفة بموت والده ليحريه على مفروضه، فتعذر ذلك عليه، فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ووقف في أول ليلة من الشهر تحت الطيارة وغنى النوبة بصوت رقيق فأصغى الخليفة إليه فأطربه، فلما وصل إلى القوما:

يا سيد السادات

للك بالكرم عادات

أنا بني ابن نقطة

وبيبي تعيش إنت مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار وأحضره وخلع عليه وفرض له ضعفي ما كان لأبيه.

وهذا البيت من الوزن الاول الذي بيته بأربعة أفعال وثلاث قواف.

ولا ينبغي أن تنظم القوما إلا باللفظ العامي السهل الرقيق أسوة بالكان والكان بل أرق منه ألا ترى إلى رقة هذا البيت كيف أطرب الخليفة وكان معجماً كلفظ القريض لما حرّكه.

هذا الفن وما قبله من كان وكان لأهل العراق فيهما اليد الطويلة دون غيرهم من أهل البلاد؛ وربما تكلف بعض أهل البلاد لبعض الكان والكان دون القوما لاشتهاره ولكن فاته في نظمه الظرف العراقي وعدوبة الألفاظ. وكل بيت من القوما قائم بنفسه ك: المواليا و الدوبيت وكذلك إذا نظم الناظم منه قطعة كالقصيدة على رويّ واحد جاز له تكرار قافية كل بيت منها في آخره، فمن لطائف أهل العراق قولهم من ضروبات القوما وهو:

إن ردت تخطي بحور

إجعل كفوفك بحور

وإلا فلا تتعشق

قدودنا والنحور

ومثله في الظرف ثانياً قولهم:

يمي يريد عصفور

ولا يكون نفور

يعبر لباب الحلبة

يجي لباب الصور

ومثله في الظرف ثالثاً قولهم:

على الغنا والزمور
بما وتجري أمور

إنهض وصفي الخمور
حتى نطاوع أمرك

على شواطئ النهور
ولا بخط المهور

نحننا نحب الزهور
ما ننحصر بالوثائق

ومثله في الظرف رابعاً قولهم:

وافترضتم وافترضنا
ولا إحننا ربحنا

بحتم ورحنا
لا نتم ربحتم

ومثله في الظرف خامساً قولهم:

هل ترى عيني تراهم
ومأواهم وما هم

حادي سراهم
هذي منازلهم

ومثله في الظرف سادساً قولهم:

كنا مالك. دون أخوالك. والك. سلنتنا الله يجعلو

أول سؤالك. أقصر مقالك

قد سمح. قبلك وقالك. إن بدالك. في الهوى الله أقالك

ومثله في الظرف سابعاً قولهم:

كنتم حكيه شرحها ينقل إليه. أنتم هنتكم عرضكم. فأنا اش عليه

ذيك الحكية. قصرت عنكم خطيه. وقد غسلتو. من محبتكم يديه

هاذي النوية. من رطب ذيك الجويه. وقط حيه. ما تلد إلا حويه

نقل إليه. ما جنى في الزويه. وما بقي مكركم. يعبر عليه

ومثله في الظرف ثامناً قولهم:

اش ترى أوقعك معهم
قبل ما تظهر بدعهم

أي قلب دعهم
أنكف عنهم

لولا طمعهم

بان قلبي ما يدعهم

ما خالفوني

واظهروا فيه بدعمهم

ومثله في الظرف تاسعاً قولهم:

والحب الأغيذ

خبره كيف تغرو المنضد

يروى صحاح الجوهرى عن المبرد

وهذا غير ما بينوه من أوزان القوما أيضاً وتكلموا عليه. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب. انتهى ما أوردته هنا من مصطلح الفنون الأربعة وهي الزجل، والمواليا، والكان وكان، والقوما، وما قد تقرر حذف الإعراب منها، وأما لا تنظم إلا باللفظ الرقيق العامي لتخف على الأسماع. قلت: والرسم الذي وضعته في كتابهم هو المصطلح عند المخترعين، فإذا نظر المتأمل إلى الرسم يعلم أن المصطلح عليه، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.